ثقافة الموريسكيين العلمية من خلال كتاب الحجري

مراجعة: لطف الله قاري
ينبع الصناعية - السعودية

يعرّف الموريسكيون Moriscos أنهم المسلمون الذين بقوا في شبه جزيرة الأندلس بعد سقوط آخر معاقلها (غرناطة) سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. وقد أثبتت الحوادث والثورات مرة بعد مرة، طوال أكثر من قرن، أنهم تظاهروا بالتنصر، ولكنهم كانوا يمارسون شعائر الدين الإسلامي سرًا، هم وأبناؤهم من الأجيال التي جاءت بعدهم. وظلوا في اضطهاد ومطاردة، ومنعوا من التحدث بالعربية، أو اقتناء كتب بهذه اللغة، أو ممارسة أي عبادة إسلامية، تحت طائلة القتل حرقًا، إلى أن تم طردهم بشكل جماعي سنة ١٠١٧هـ / ١٦٠٩م.

وفي السنوات الأخيرة نشطت الدراسات حول هؤلاء وثقافتهم وحياتهم الدينية والعلمية في الأندلس، وفي البلاد التي هاجروا أو فروا إليها، وبخاصة تونس والمغرب. فنستعرض في هذه المقالة شيئًا عن حياتهم العلمية، خاصة في مجال العلوم الطبيعية والثقافية، وتأثيرهم الحضاري في تونس والمغرب. ثم نعرّف بعض علمائهم ممن تركوا آثارًا تلقي الضوء على تاريخهم العلمي. ثم نركّز الضوء في أحد أولئك العلماء الذي ألّف كتابًا، فيه الكثير من المعلومات.

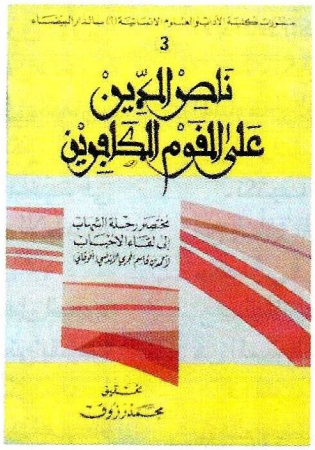

غلاف كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»

الحياة العلمية للموريسكيين تحت الحكم الكاثوليكي

معلوم أن سكان الأندلس الإسلامية من مسلمين وغيرهم كانوا متفوقين على من سواهم من الممالك المجاورة من ناحية العلوم. وكان الأوربيون يأتون إليهم للتعلم. وعلى الرغم من أن النصارى الكاثوليك حكام البلاد الجدد كانت لديهم علومهم التي كانت امتدادًا لعلوم الأندلس الإسلامية، إلا أن الموريسكيين ظلوا يكافحون لنيل العلم بما توافر لديهم من وسائل، على الرغم من الاضطهاد والتفرقة. فهناك بعض الوثائق الإسبانية المنشورة تمثل إجازة منحت لموريسكيين بممارسة الطب، وذلك بناء على تعلم الطب العربي. أما الجامعات الإسبانية والتعلم على يد الأطباء الإسبان فقد امتنع الموريسكيون عنها، ومنعوا منها، لأنها كانت خاضعة لسيطرة الكنيسة التي كانوا يقاطعونها؛ ولذلك نجد سجلات محاكم التفتيش فيها قضايا تتعلق بممارسة الطب العربي أو طب الأعشاب، مع ممارسة الجراحة من خلال تعلمها من الكتب العربية. وكان الإسبان بدورهم يحاربون الأطباء الموريسكيين ويمنعونهم من ممارسة مهنتهم، بزعم أنهم يقتلون مرضاهم المسيحيين في أثناء العلاج؛ ولذلك تدهور الطب عند الموريسكيين كما تدهورت جميع أحوالهم.

واشتهر من أطباء الموريسكيين ألونسو ديل كاستيلو

Alonso del Castillo الذي درس الطب من الكتب العربية، وكان على اتصال مباشر بتلك الكتب، مما جعله يتفوق على الذين تخرجوا في الجامعات. وأما الذين مارسوا الطب الشعبي فكانوا يعتمدون على كتاب ديسقوريدس اليوناني الذي عُرّب في عهد الدولة الأموية الأندلسية، ثم تُرجم إلى الرومانسية (اللاتينية الإسبانية لغة ذلك العهد). وعندما لم يجدوا فرصة لقراءة كتب الطب العربي وتعلمها اتجهوا إلى العلاج بالنشرة والرقية، ثم بالتمائم والتعاويذ. هذا في إسبانيا، أما في البرتغال فقد برز بعضهم بوصفهم أطباء ومترجمين في بلاط ملوك البرتغال.

وقد عُثر على بعض المكتبات الصغيرة للموريسكيين في عصرنا الحالي. فكان من ضمن كتبهم مصاحف شريفة، وكتب إسلامية، وكتب في العلوم مثل المجسطي لبطليموس وبعض الكتب الطبية. وفي بعض المخطوطات الموريسكية المكتوبة بلغة ألخميادو نجد بعض علومهم، مثل الطب الشعبي المزوج بالتعاويذ والتمائم، ونجد كتباً أخرى في التنجيم. ولغة ألخميادو هي اللغة القشتالية مكتوبة بحروف عربية.

والكلمة محرّفة من كلمة الأعجمية. فكلمة «الأعجمية» تنطق بعامية الأندلس والمغرب هكذا لعجمياتو. ثم أبدلت الجيم خاء بالإسبانية الحديثة، فصارت الكلمة «ألخميادو». وكان أغلب الموريسكيين لا يتحدث إلا الإسبانية، ولا يقرأ ويكتب إلا بها، لتسلط الإسبان ومنع اللغة العربية. إلا أنهم كتبوا مؤلفاتهم تحت حكم الكاثوليك بحروف عربية لإخفائها عن غيرهم. ولكنهم عندما نزحوا إلى شمال إفريقية صاروا يكتبون الإسبانية بالحروف اللاتينية كما يكتبها غيرهم. فكتاباتهم في المهجر إسبانية عادية، وليست «ألخميادو».

وكان الموريسكيون أصحاب السبق في الزراعة والصناعات الغذائية والري؛ ففي مرسوم الطرد الجماعي الذي أصدره الملك الإسباني استثنى من الطرد عدداً من أصحاب الخبرات في زراعة الأرز وصناعة السكر ومهندسي الري، وسيرد نص تلك الفقرة من المرسوم في آخر المقالة.

وفي عام ١٥١٣م ظهر بالإسبانية كتاب عنوانه «تأليف في الزراعة» Obra de Agricultura من

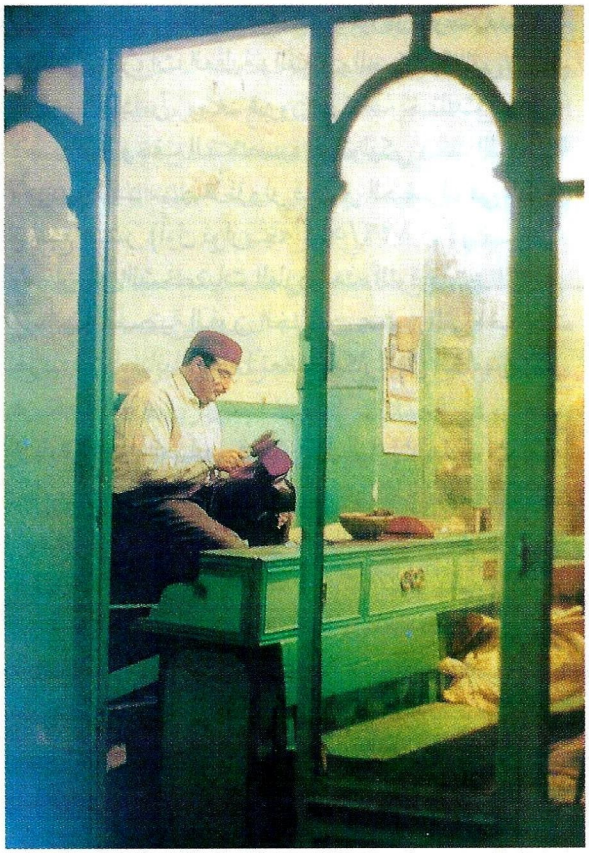

صانع الشاشية (الطربوش) في ورشته في القيروان بتونس

تأليف كبريال هريرا .Gabriel Herrera وكان يعدّ من أهم الكتب الزراعية الإسبانية في ذلك العهد، حتى عصرنا الحاضر. طبع في لغته الأصلية نحو خمسين طبعة حتى عام ١٨٥٨م، كما ترجم إلى عدد من اللغات الأوربية. وكان المؤلف قد أقام في غرناطة عشر سنوات من ١٤٩٣ ـ ١٥٠٣م بعيد سقوطها، يخالط ويعاشر الفلاحين المسلمين. ثم تلتها عشر سنوات من الرحلات في مدن بإسبانية وخارجها. فكانت مصادره في الكتاب ثلاثة: خبراته الشخصية مع المسلمين، ورحلاته الطويلة في بلاد الأندلس وبعض المدن الأوربية، وكتب الأقدمين، ومنها كتب ابن وافد الأندلسي وابن سينا والرازي. ويظن أن المؤلف هريرا من اليهود أو المسلمين المتنصرين.

وأجمعت الدراسات حول تاريخ الموريسكيين أن الطرد الجماعي أدى إلى اختلال في الحياة الاقتصادية لإسبانيا. فتأثرت صناعة قصب السكر والحرير وزراعة

الأرز والقمح، وأغلقت المصانع والورش. وحرمت تلك البلاد من الثروات العقلية والفنية والصناعية التي ميّزت مسلمي الأندلس. وبعد قرون عندما اختلفت العقلية الإسبانية وخف التعصب الكاثوليكي بعد النهضة الأوربية نجد سجلاً لزوار قصر الحمراء في القرن التاسع عشر (أول تواريخه ١٨٢٩/٥/٩م) يكتب فيه الإسبان من الشخصيات البارزة هذه التوقيعات:

«إنها همجية القرن الخامس عشر التي أخرجت العرب من إسبانيا، وإنه لتعصب كارلوس الخامس الذي دفن نفسه حيًا».

«متى أبدع الصليب قصراً كقصر إشبيلية، وجامعاً كجامع قرطبة، وحمراء كحمراء غرناطة».

«أبرأ من جهل الملوك الذين قرروا طرد الموريسكوس».

«ليس هناك فنان لا يصرخ وقلبه جريح: ملعون هو كارلوس الخامس، آمين».

تعميرهم لتونس والمغرب

إذن كانت حياتهم مزيجاً من الاضطهاد والقمع، لا يسمح لهم بغير الكاثوليكية ديناً، ولا بغير الإسبانية لغة وإلا تعرضوا للقتل حرقاً على يد مجرمي محاكم التفتيش. ولذلك لا نجد منهم من اشتهر بعلم قبل هجرتهم إلى شمال إفريقية، وإلى إستنبول فيما بعد. فكانت هجرتهم إلى تونس والمغرب نهضة عمرانية وزراعية وعلمية بتلك الديار، فنشطت حركة بناء قنوات الري والسدود والآلات الميكانيكية والمنشآت العمرانية البارعة التي مازال يكتشف المزيد منها حتى اليوم. ففي تونس مثلا نجد الدراسات الحديثة توضح أنهم استوطنوا قرى صارت بعد تعميرها مدناً أندلسية، مثل زغوان وطبربة وغار الملح وتستور، وغيرها مما يزيد على عشرين مدينة، نرى اليوم آثارها المعمارية تشهد على تفوق بُناتها، وتعدّ من المفاخر لتونس الحديثة. وانتشرت بين التونسيين مأكولات وملابس وعادات تأنق جديدة، مثل العناية بالأزهار وتصفيفها في البيوت، وأساليب جديدة في الفلاحة أدت إلى ازدهار في هذا المجال. وانتشرت بقدومهم النواعير، والعربات ذات العجلات التي عبدت من أجلها الطرقات، ونشأ أسلوب جديد في تخطيط المدن، بحيث تتقاطع الأنهج الفرعية بزوايا مستقيمة مع الشوارع الرئيسة بشكل متواز. واشتهر منهم مهندسون أندلسيون كثيرون ينسب إليهم إنشاء عدة معالم معمارية بتونس. وبرزوا في الجهاد والصناعات الحربية لقتال الإسبان الذين كانوا يحتلون عدداً من مدن شمال إفريقية. وانتشرت صناعات جديدة، مثل صناعة الشاشية (وهي القلنسوة أو الطاقية الحمراء) وتجليد الكتب والعطور والخزف. وصارت هذه المنتجات تصدر إلى خارج تونس، مما أدى إلى ازدهار الحالة الاقتصادية.

وأما في المغرب فتأثيرهم كان أقل بسبب عدم الاستقرار السياسي، وعدم توافر الأمن، وكثرة قطاع الطرق، والحروب الأهلية. فالسعديون الذين حكموا أجزاء من المغرب حكماً هشّا لم يوفر له الأمن وكانوا يضعون نصب أعينهم المصالح الشخصية فوق كل اعتبار قومي أو ديني. فالعثمانيون كانوا في نظرهم أعداء لهم، والإسبان الذين كانوا يحتلون أجزاء كبيرة من الشواطئ المغربية كانوا حلفاء لهم. والموريسكيون الذين تحالف بعضهم مع المجاهدين الأتراك في الجزائر حوربوا لأنهم تحالفوا مع هؤلاء الأتراك. والغريب أننا نجد في بعض مؤرخي المغرب اليوم من يسوّغ هذه الخيانة للدين والأمة. فنقرأ لهم عبارات مثل «كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة. أي في النهاية التنازل عن نقاط معينة للمسيحيين، أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك» محمد رزوق، (الأكاديمية، انظر المراجع). ونقرأ أيضاً: لماذا لم يستغل المعتصم هذه الجالية الأندلسية الضخمة لتقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا؟ إن الجواب واضح، وهو يتكرر دائماً... ألا وهو الضغط التركي، إذ سعى عبد الملك كسابقه إلى عقد محالفات مع الإسبان ضد الأتراك (المصدر نفسه). «هكذا ضاعت على المنصور، أمام ضغط الأتراك، فرصة تقديم المساعدة للموريسكيين بإسبانيا، بل وتحرير ما تبقى من الثغور المحتلة، إذ

كان سكان الأندلس من المسلمين متفوقين على من سواهم من ناحية العلوم، وكان الأوربيون يأتون إليها للتعلم

اضطر للتقارب مع الإسبان». ويقول باحث آخر (محمد حجي؛ جولات تاريخية، انظر المراجع): «وظهر طموحه في إقامة خلافة إسلامية إفريقية بزعامته تناهض الخلافة العثمانية التي لم يعترف بها السعديون قط، وعدّوها غير شرعية».

وإذا سئل هؤلاء المؤرخون الذين يسوغون التغاضي عن المحتل وعقد التحالفات معه ضد المسلمين والمجاهدين الأندلسيين: ما رأيكم في تصرف المعتمد بن عباد حين دعا يوسف بن تاشفين لإنقاذ الأندلس؟ فسيكون جوابهم بأنه موقف مشرّف... مع أن هذا أدى إلى فقدان المعتمد لملكه ولحريته. ولكن النظرة الإقليمية الضيقة تتغاضى عن السعديين الذين قام ملكهم على

جسر وسد الباطان في طبرية، من آثار الموريسكيين بتونس

ارتكاب المذابح التي يشيب لها الشاب ويندى لها الجبين، والذين لم يستقر ملكهم يوماً. فسرعان ما قضت الحروب الأهلية بين الأشقاء من الأسرة الحاكمة على هذه الدولة التي امتلأت كتب التاريخ المغربي بذكر فظائعها في بلاد السودان وغيرها، ومحاربتها للمجاهدين الأندلسيين.

ثم إن الذي يراجع تاريخ شمال إفريقية يجد أن الولاة العثمانيين ما كانوا يرون أنفسهم إلا رسلا مؤقتين مهمتهم الجهاد فقط. فعندما عزم الوالي المجاهد خير الدين بربروس على ترك الجزائر تصدى له علماؤها وقالوا له: لا يحل لك ترك البلد وأنت تعلم حاجتها إلى أن تبقى فيها للجهاد. وأهل بجاية نادوه وأخاه عروجاً لإنقاذهم من المحتلين الإسبان.

وللحقيقة يجب أن نذكر أن الخيانة وموالاة الإسبان ومحاربة العرب بعضهم بعضاً لم تكن من صفات السعديين وحدهم؛ فكتب التاريخ ملأى بأخبار الخونة في ذلك الزمن الذي ضاعت فيه الأندلس، وحكام شمال إفريقية يقتتلون فيما بينهم. ومساحة ملك الواحد منهم لا تتعدى مدينة واحدة في أكثر الأحيان.

أما المجاهدون الأندلسيون فما تركوا مجالاً للجهاد إلا ساهموا فيه، تارة تحت لواء السعديين كما حصل في معركة وادي المخازن ضد البرتغاليين، وتارة تحت لواء مستقل، في الحملات البحرية لجمهورية سلا الأندلسية. وعمّرت من هجراتهم مدن كانت مدمّرة أو خاوية، مثل تطوان والرباط وشفشاون. وهنا نجد التأثير الأندلسي في بيوت منظومة ضمن مدن مخططة ذات متنزهات أنشئت لنزهة عموم السكان، كما كانت الحال في مدن الأندلس، حيث كانت الحدائق العمومية من مبتكراتهم؛ ولذلك نجد اعتناء خاصاً بوصف الحدائق والطبيعة في الشعر الأندلسي.

وساهم الموريسكيون في تطوير بعض أساليب الري بالمغرب، إذ ساهموا في هذا المجال في تركيب عدة نواعير، وخصوصاً بفاس. كما ساهم أندلسيو مراكش بمد عدة قنوات انطلاقاً من نهر تانسفيت، وعمّروا الأراضي الزراعية التي منحت لهم من الدولة، واهتموا بغرس أشجار الزيتون، وتربية دودة القز، وتحسين الإنتاج الزراعي. ومن الصناعات التي أدخلوها إلى المغرب الشاشية «الطربوش الأحمر» وصندوق العروس المزخرف. وفي مجال البناء أدخلت صناعة الفسيفساء ونقش الحجر والجبس والخشب والفسقيات المائية. فكانت أجمل مدن المغرب هي التي زينها الموريسكيون وجملوها. وكانوا هم القائمين على الصناعات الحربية، ومنها البارود والمدافع.

من علماء الموريسكيين

نبغ من هؤلاء عدد ممن نعدّهم مفخرة للعرب والمسلمين، منهم من طبعت كتبه وأصبحت معروفة، ومنهم من كتب عنه الباحثون ولم تطبع مؤلفاته بعد. وأكثرهم ما تزال كتبه مخطوطة، وهو بعيد عن الشهرة.

فنعرّف هنا بأشهرهم، أما الآخرون الأقل شهرة فنكتفي بالإحالة إلى المراجع لمن أراد معرفة المزيد. وتقتصر مقالتنا هذه على مجال العلوم الطبيعية والتقانية، مع أن هؤلاء برزوا في أكثر مجالات التأليف:

- ليو الإفريقي: ظل الحسن بن محمد الوزان، المعروف باسم ليو الإفريقي شخصية مرموقة في الأوساط العلمية الأوربية منذ منتصف القرن العاشر الهجري (أواسط القرن ١٦م)، بينما بقي مجهولاً في العالم العربي والإسلامي حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري (١٩م). فكتابه المعروف «وصف إفريقية» ظل منذ نشره باللغة الإيطالية سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م يترجم إلى مختلف اللغات الأوربية حتى عصر قريب. ولم

الحرف التي أتى بها الموريسكيون إلى تونس

يترجم إلى العربية إلا عامي ١٩٧٩ و١٩٨٠م حين نشر في ترجمتين مختلفتين في الرياض والرباط.

ولد الوزان في غرناطة سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، ولكنه انتقل مع أسرته إلى فاس التي درس فيها. ثم قام برحلات مع عمه الذي كان موفداً من السلطان الوطاسي حاكم فاس. وفي سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م أسره قراصنة إيطاليون أهدوه إلى البابا ليو العاشر، فتظاهر الوزان بالتنصر، وتسمى باسم البابا. ولكن كتابه يعتمد التواريخ الهجرية، وفيه صبغة إسلامية تتجلى في حماسة المؤلف عند حديثه عن عادات المسلمين وأعيادهم. وفي آخر حياته هرب إلى تونس وعاد إلى إسلامه.

وكتابه مرجع قيّم في الجغرافيا والتاريخ وعلوم الأناسة «الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا وما يتصل بها». وبقيت من مؤلفاته الأخرى: «معجم طبي عربي عبري لاتيني» منه قطعة محفوظة بالأسكوريال، و«كتاب في تراجم الفلاسفة والأطباء العرب» باللاتينية. طبع في زيورخ عام ١٦٦١م.

- إبراهيم الرباش: ولد الريس إبراهيم بن أحمد غانم الرباش نحو عام ١٥٧٠م. وقام بعدة سفرات بين إشبيلية وأمريكا الجنوبية. وكان خلال عمله بالسفن المسلحة يدرس آلات البارود والمدافع فأتقنها. ووقع في السجن لاكتشاف أمر إسلامه أو كونه موريسكيا، ولكنه خرج من السجن بواسطة أصدقاء له، ثم غادر بلاده باستعمال الرشوة، وذهب إلى تونس، فصار قائد أسطول يغزو بلاد الإسبان. فجرح خلال ذلك وأسر. وسجن سبع سنوات. وبعد فك أسره تولى قيادة قلعة حلق الواد التونسية، لخبرته في المدفعية. وفي عام ١٦٣١م ألّف كتاباً متقناً في المدفعية، وذلك بالإسبانية التي لم يكن يجيد القراءة والكتابة بغيرها. ثم تم تعريب هذا الكتاب سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م بواسطة أحمد بن قاسم الحجري الذي هو محور هذه المقالة. ومن هذا الكتاب نسخ مخطوطة في مصر وليبيا وتونس والمغرب، منها النسخة الأم بالرباط.

- الوزير الغساني: كان أشهر طبيب في تلك الفترة أبو القاسم بن محمد الأندلسي الغساني الشهير بالوزير، وكان نقيب الأطباء بفاس، لا يمارس طبيب هذه المهنة إلا بعد أن يجتاز اختباراً ويجيزه النقيب. والنقابة من التنظيمات التي جاء بها الموريسكيون إلى المغرب. وكان إضافة إلى ذلك يقوم بتدريس الصيدلة والأعشاب.

قال المستشرق هنري رينو H.P.J. Renaud حول

كتابه المطبوع «حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار»: يعدّ الغساني ذهناً متميزاً إذا قيس بعصره وبيئته. والحكم على آثاره لا يتأتّى دون موازنتها بعدد من مصنفات المادة الطبية لمؤلفين عرب آخرين. صحيح أنه لم يصل بعلمه إلى حد يجعله يتبيّن بوضوح تام ما للزهرة من أهمية راجحة، ولا سيما أعضاء الإخصاب التي تكمن في أحشائها، حتى يتمكن من وضع قاعدة صحيحة لنظام التصنيف النباتي، فهو يطلق اسم الخيوط على المدقات والأسدية (أي أعضاء الذكورة والأنوثة في النبات) ويخلط بينهما. إلا أنه استخلص بوضوح فكرة التسلسل في خصائص النبات من جهة، كما أدرك من جهة أخرى مفهوم القرابة القائمة بين أنواع النبات، بحيث يضمها تحت تسمية واحدة بواسطة تلك الجموع الطريفة التي اصطنعها.

وقال المستشرق ألدو ميلّي Aldo Mieli: امتاز أبو القاسم الغساني الوزير بتصنيفه للنبات، فجاء كتابه فريداً من نوعه بين المصنفات العربية.

ولد الغساني سنة ٩٥٥هـ، وتوفي سنة ١٠١٩هـ/١٦١١م. ونشأ في فاس حيث تلمذ لعلمائها. ولكنه على الأرجح كان من مواليد الأندلس، وسليل أسرة موريسكية. والدليل على ذلك إتقانه للإسبانية التي عرّب منها كتاب «مغني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب صلى الله عليه وسلم». وهذا الكتاب مفقود الآن. أما كتابه الثالث «الروض المكنون في شرح أرجوزة ابن عزرون» فبقيت منه نسخ في المغرب وإسبانيا وبريطانيا وهولندا.

كان الموريسكيون ينصّرون قسراً، فيظهرون النصرانية، ويمارسون شعائرهم الإسلامية سراً

نبذة من حياة الحجري ومؤلفاته

ولد أحمد بن قاسم الأندلسي، المعروف عند الباحثين في عصرنا بالحجري سنة ٩٧٧هـ في الأندلس تحت حكم الكاثوليك. وتعلّم العربية وتعاليم الدين الإسلامي سراً من والديه، كما ذكر هو في كتابه موضوع هذه المقالة. وقد جاء في كتاب «الأنوار النبوية في آباء خير البرية» -المخطوط حالياً بالرباط- لمعاصره الموريسكي الإمام الشريف محمد بن عبد الرفيع كيف كان الأب يخفي تعليمه الإسلام لابنه حتى من أقرب المقربين، خوفاً من التعرض للقتل حرقاً على يد مجرمي محاكم التفتيش. ونشأ في إشبيلية في كنف والديه. وعمل فترة في غرناطة. ولكنه عاد إلى إشبيلية، وفيها ودّع أصدقاءه، وخرج مهاجراً إلى المغرب عن طريق شنتمرية بالبرتغال سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م. واستقر في مراكش مقر حكم السعديين. وفي عهد زيدان بن أحمد المنصور السعدي عمل مترجماً في بلاطه، ثم عند أبنائه من بعده، وذلك حتى سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م.

في سنة ١٠١٩هـ/١٦١٠م قام برحلة إلى فرنسا وهولندا. وكان هدفه من الرحلة محاولة استرجاع أموال سلبت من الموريسكيين عند الطرد الكبير، حين أخذهم ربابنة فرنسيون في سفنهم. وبدلا من أن يوصلوهم بسلام إلى المغرب سلبوهم أموالهم وتركوهم في جزيرة قرب الشواطئ المغربية، يعانون الجوع والعطش، ومات منهم أربعون بسبب ذلك، إلى أن سخّر الله لهم سفينة إنجليزية أنقذتهم وحملتهم إلى المغرب الذي أكرم مواطنوه وفادتهم.

في سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م رحل إلى مدينة سلا (المجاورة للرباط). وكانت يومها جمهورية موريسكية مستقلة. وبعد أن أقام فيها فترة قصيرة غادرها في السنة التالية إلى المشاعر المقدسة لأداء الحج. وخلال طريق الذهاب والعودة أقام فترة في مصر، حيث جالس فيها فقيه المالكية علي بن محمد الأجهوري (ت:١٠٦٦هـ). فطلب منه المذكور أن يدوّن تجاربه ومشاهداته ومناظراته مع أهل الملل الأخرى. فكتب كتابه «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب». ثم اختصره في كتاب عنوانه «ناصر الدين على القوم الكافرين».

وبعد مصر سافر إلى تونس سنة ١٠٤٧هـ. وهناك التقى الفقيه الموريسكي محمد بن عبد الرفيع وبالريس إبراهيم غانم الرباش السابق ذكرهما. وأنجز تعريب كتاب الرباش سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م. وقد أتم تأليف كتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين» في تونس سنة ١٠٤٧هـ، وكتب منه نسخاً أخرى. والنسخة التي وصلت إلينا كتبت بخط المؤلف في تونس سنة ١٥٠١هـ. وفيها زيادات كثيرة، منها قوله بأنه بلغ من العمر ٧٤ سنة قمرية، ومنها أن ابنه المقيم في تستور

(بتونس) قام مع زوجته بزيارة والده -أي المؤلف- سنة ١٠٥٠هـ. فيبدو من هذه التواريخ أن المؤلف استقر مع عائلته في تونس منذ عودته من الحج، وتوفي بها بعد سنة ١٠٥١هـ/١٦٤١م.

وقد ترك من المؤلفات والمترجمات باللغة العربية:

- رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب: السابق ذكره. ولم تبق منه إلا فقرات صغيرة، اقتبسها محمد بن العياشي في كتابه «زهر البستان».

- ناصر الدين على القوم الكافرين: مختصر الكتاب السابق، وهو موضوع هذه المقالة.

- تعريب كتاب الريس إبراهيم الرباش السابق ذكره، بعنوان «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع». من هذا الكتاب، كما ذكرنا، نسخ مخطوطة في مصر وليبيا وتونس والمغرب، منها النسخة الأم بالرباط.

- تعريب كتاب «الرسالة الزكوطية». وهي رسالة في الفلك والتنجيم، ألّفها اليهودي الأندلسي إبراهيم بن السموأل بن زكوطة السلمنقي (هاجر إلى تركيا العثمانية بعد سقوط غرناطة، وتوفي بها بعد عام ١٥١٠م). وقد ترجمت رسالته من العبرية إلى اللاتينية في إسبانيا نفسها، ثم عرّبها الحجري بمساعدة راهب أسير عند الملك زيدان بمراكش. منها نسخة في المكتبة الحسنية بالرباط.

- كتاب في الجغرافيا اسمه «دراني»، ذكر في كتاب «ناصر الدين» أنه عربه بناء على طلب الملك زيدان، وهو مفقود لم يصل إلينا.

- قام بترميم مخطوطة «المستعيني في الطب» للطبيب اليهودي الأندلسي يونس بن إسحاق بن بكلارش. وكانت بعض أوراقه مهترئة فأعاد كتابتها. وضم الأوراق الجديدة إلى القديمة. والصفحات التي كتبها بخط يده عليها تعليقات مفيدة بالإسبانية. والكتاب نفسه بالعربية، ولكنه يحتوي على ثروة من الألفاظ الرومنسية أو الإسبانية القديمة. وكان مصدراً مهمّا لمؤلفي المعجمات من المستشرقين. وقد أهدى الحجري هذه النسخة إلى صديقه المستشرق الهولندي خوليُس Golius، وهي محفوظة الآن في مكتبة جامعة ليدن.

- عبارات تذكارية بالعربية والإسبانية، على أوتكراف لفتى هولندي، مؤرخة في ١٦١٣/٩/١١م. فيها نصائح بتقوى الله والابتعاد عن المحرمات.

- رسالة بالعربية إلى المستشرق الهولندي إربنيوس، كتبها في أمستردام سنة ١٠٢٢هـ/١٦١٣م. وكان قد عرفه في باريس. وهي محفوظة في مكتبة جامعة ليدن.

- رسالة بالعربية إلى المستشرق الهولندي خوليُس Golius الذي كان مقيماً يومها في ميناء أسفي (صافي) بالمغرب، يرد فيها على رسالة من المذكور. وفيها نجد أن الحجري أهدى المستشرق كتابين: أحدهما «مروج الذهب» للمسعودي. إلا أن هذا الكتاب سلبه الأعراب في الطريق بين مراكش وأسفي. والآخر «المستعيني في الطب» السابق ذكره. والرسالة مؤرخة في ١٠٣٣/٥/١٠هـ. وهي محفوظة في مكتبة جامعة ليدن.

الطرد الجماعي للموريسكيين أدى إلى اختلال الحياة الاقتصادية في الأندلس بعد أن حرمت البلاد من الثروات العقلية والفنية والصناعية

ومن مؤلفاته ومترجماته بالإسبانية:

- ترجم رسالة من الملك زيدان إلى الحاكم العام بهولندا. وهي مؤرخة في ١٠٢٨/١٢/١٣هـ (١٦١٩/١١/٢١م)، محفوظة في مكتب السجلات العمومية بلاهاي.

- عند زيارته لمدينة سلا ألقى أحد الموريسكيين بها قصيدة ترحيب له بالإسبانية. فألّف الحجري قصيدة مدح لذلك الشاعر باللغة نفسها. والقصيدتان محفوظتان ضمن مجموع في مكتبة جامعة بولونيا بفرنسا.

- ترجمة عدة فصول من كتاب «الشفاء» للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت:٥٤٤هـ)، ضمن المجموع السابق ذكره في بولونيا. وهذا أحد كتب كثيرة كتبها الحجري وغيره بالإسبانية، ليقرأها المهاجرون الموريسكيون الذين كانوا لا يجيدون العربية.

- رسالة طويلة كتبها من باريس إلى أصدقائه الموريسكيين في مدينة إستنبول. يذكر فيها أخباره ومشاهداته منذ خروجه من الأندلس. وفيها ما يبكي القلب ويدمي الأعين مما حصل لهم من الفواجع. وفيها

دار عثمان داي بتونس

يقول: إنه كتب الرسالة إليهم سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢م. وبعد أن قرئت في إستنبول أخذها الشيخ محمد بن عبد الرفيع السابق ذكره إلى تونس. وفي تونس نسخ المؤلف منها نسخة، أي بعد عودته من الحج سنة ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م. ولكن أحد الموريسكيين المثقفين ممن كانوا لا يجيدون العربية طلب منه ترجمتها إلى الإسبانية. فنستنتج أن الرسالة كانت أصلاً بالعربية. وتوجد نسخة منها حاليًا ضمن المجموع السابق ذكره في بولونيا. وقد نشرت مترجمة إلى الإنجليزية في كتاب Wiegers المذكور في المراجع.

- ترجمة إسبانية لخطبة ألقاها المؤلف في عيد الفطر بعد عودته من الحج. والترجمة من عمل المؤلف. وهي أيضًا ضمن المجموع السابق ذكره في بولونيا.

كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»

يعدّ هذا الكتاب من أهم المصادر حول أحوال الموريسكيين وثقافتهم، فهو مكتوب من قبل أحد علمائهم البارزين، يتحدث فيه بملء حريته، بعيداً عن محاكم التفتيش، ويروي ما فعله الإسبان وغيرهم بالموريسكيين. وفيه وصف مجادلاته مع اليهود والنصارى في أمور الدين. ونجد فيه الكثير من الفوائد عن العلوم التي توافرت لمؤلفه في ذلك الزمن. وقد اكتشفه بعض المستشرقين الإيطاليين عام ١٩٦٦م. ونشر بعض أبوابه بالتصوير مع ترجمة إيطالية. ثم قيّض الله له الباحث المغربي محمد رزوق الذي أخرجه إخراجًا جيداً عام ١٩٨٧م، مع شرح كلماته التي ورد كثير منها بالعامية المغربية. فبالإضافة إلى تشابه عامية الأندلس والمغرب فالمؤلف كتب كتابه بعد إقامته أربعين عامًا بالمغرب.

ويشتمل الكتاب على الفصول الآتية:

- في ذكر ما وقع لي في مدينة غرناطة.
- في قدومنا إلى بلاد المسلمين.
- في بلوغنا إلى مدينة مراكش.
- في قدومنا إلى بلاد الفرنج (فرنسا).
- في قدومنا إلى بريش (باريس).
- في قدومنا إلى قاضي الأندلس بفرنجة.
- في رجوعنا إلى مدينة بريش.
- في رجوعنا إلى أولونة Olonne.
- في قدومنا إلى مدينة برضيوش بوردو Bordeux.
- في مناظرات اليهود.
- في بلاد فلنضس فلاندس Flandes وهي هولندا.
- فيما اتفق لنا في مصر مع راهب.
- في ذكر ما أنعم الله تعالى عليّ.

وفي الكتاب عدد من الفوائد نستعرض منها ما يأتي:

معلوماته الجغرافية

ذكرنا في الأسطر السابقة أنه كان يترجم ويعرّب عدداً من الكتب العلمية. ومنها كتاب كبير الحجم في الجغرافيا. فيذكر في كتابه أن السلطان زيدان أمره بترجمة كتاب عجمي كبير اسمه «دراني»، سمي باسم أكبر جبال العالم. ولم ير الحجري في كتاب الجغرافيات مثله. وكان مؤلف الكتاب فرنجيا «أي فرنسيًا» اسمه القبطان. ونقل عنه أن منابع الأنهار تختلف من نهر إلى آخر، وأنه ليس صحيحاً أن منبع جميع الأنهار واحد.

وفي الكتاب يحدثنا الحجري أنه قرأ كتاباً عن رحلة حول العالم قام بها رحالة اسمه بدرو طشابر. وفي رسالته الطويلة إلى الموريسكيين في إستنبول يقتبس شيئًا من كتاب مارمول الإسباني حول إفريقية. وهو كتاب طبع أول مرة في غرناطة عام ١٥٧٣م. وتم تعريبه في عصرنا (انظر المراجع).

ولهذا نجد معلومات الحجري حديثة بالنسبة إلى غيره من المؤلفين العرب المعاصرين له. فهو مثلا يذكر (ص ١٨ و٤٣) أن تدريج خطوط الطول يبدأ من الجزر

الخالدات المسماة الآن «بقنارية»، أي جزر الكناري.

وفي مواضع أخرى يذكر ما وصل إليه من معلومات عن العالم الجديد. فيقول عنه (ص ٩٥): «الدنيا الجديدة التي ظهرت بعد ذلك بالمغرب البعيد، حيث هي الهنود المغربية التي لم يدخلها الإسلام، وجميع سكانها القدماء مجوس، يعبدون الشمس لكفرهم، إلى أن أدخل فيها سلطان بلاد الأندلس أصنامه وشركه».

وفي موضع آخر يذكر حادثة واحدة من حوادث الغدر الكثيرة التي ارتكبها البيض ضد زعماء الهنود الحمر وأبطالهم، فيقول (ص ٩٩) إن ملوك أوربا النصارى يرتعدون خوفا من العثمانيين المجاهدين، إلى درجة أنهم يبعثون سفراء مقيمين «يقعدون على الدوام والاستمرار في القسطنطينية العظمى، يطلب منهم الصلح والرضا عنهم. وهم (أي العثمانيون) نصرهم الله وخلّد ملكهم وجعل النصارى والكفار الأعداء تحت أقدامهم، لا يبعثون رسولاً لكافر على وجه القعود في بلادهم». ثم يذكر أن ملك إسبانيا أراد إرسال سفير دائم، ولكن العثمانيين لم يقبلوه، لأنه معاد للإسلام من جهة معاملته الوحشية للموريسكيين، ولسبب آخر هو «غدره فيما مضى، مما صدر منهم مع سلطان الهنود المغربية بمدينة ميشق (يعني مكسكو) المسمى مُتَشُمه (اسم الملك المكسيكي)، إذ مشوا إليه بهدية وقتلوه».

كانت هجرة الموريسكيين إلى تونس والمغرب بداية نهضة عمرانية وزراعية وعلمية فيهما، وكان تأثيرهم في تونس أقوى من تأثيرهم في المغرب

ويتحدث في الكتاب عن دول أوربا وممالك إفريقية وآسيا. وبعد إسهاب في ذكر الدول المختلفة يقول (ص ٩٧): «وكم من أقطار وبلاد للمسلمين غيرها ما ذكرنا، لجهلي بها. وكل ما ذكرناه فهي في الأرض الكبرى المتصلة للمسلمين (يقصد أنه لم يذكر الجزر البعيدة مثل بلاد الملايو والمالديف) وفي المبات (جمع Mapa أي خارطة جغرافية) التي تصور النصارى ...الخ».

وفي أكثر من موضع يتحدث عن أرخبيل الملايو، وذلك لأنه قابل هولنديين في المغرب وفي هولندا. وهؤلاء الهولنديون كانوا يحتلون تلك الجزر. وفيها قابلوا مسلمين عرباً أو يتقنون العربية، فتعلموا منهم لغة القرآن، وأحضروا منها بعض الكتب العربية. فأحد الرسل إلى بلاط الملك زيدان أخبره قائلاً (ص ٩٧ و ٩٨): اعلم أنني كنت في جزيرة كذا من جزر الهنود المشرقية التي يأتون منها بالقرفة والقرنفل والجوز وغير ذلك من الأبازير، وهي للمسلمين. وهناك تعلمت نقرا (أي يقرأ بالعربية). وأخبره السفير أن عدد الجزر أكثر من عشرة آلاف، وأن بكل جزيرة سلطاناً مسلماً أو سلطانين. فاستغرب الحجري هذا الكلام، ولم يتقبل العدد. وقال من جملة تعليقه على كلام السفير: «وإذا قلنا هذا زاد كثيراً، فنأخذ العشر مما قال. ويبقى في الحساب ألف جزيرة، كل واحدة بسلطان مسلم. وقرأت في بعض كتب النصارى أن جزر الهنود المشرقية هي أكثر من ألف وثلاثمئة جزيرة». وبعد هذه العبارة يذكر كتاب رحلة بدرو طشابر حول العالم فيقول (ص ٩٨): ومن جملة ما ذكر في كتابه أن في جزيرة كبيرة من جزر المشرق دخل الإسلام إليها قبل هذا العهد بنحو مئة وثلاثين سنة. والجزيرة تسمى بجاوش (يقصد جاوة)، وصاروا مسلمين. وكانوا قبل ذلك يأكلون لحم آدم.

وفي أثناء إقامته بمدينة ليدن المشهورة بجامعتها العريقة أحضر له بعض العلماء كتاباً بالعربية وسأله: أتعرف تقرا هذا؟، فطالعه الحجري وأخبرهم بمحتوياته، وأن بإمكانه أن يترجمه إلى الأعجمية (أي الإسبانية). فتعجبوا فيما بينهم، وقالوا له بأن الكتاب أحضروه من جزيرة كذا من الهنود المشرقية التي يصل إليها المسافر في ذلك الزمن في مدة تقارب السنة. وهذا شيء عجيب. (ص ١٠٧): وهذا يدل على أن العربية لسان واحد عام في كل بلد. وكلامنا في هذه البلاد مختلف لسائر الألسن، لأن في بلاد الانجلز (كلام واحد)، وأهل فرنجة بلغة أخرى، وكذلك ببلاد الأندلس عجمية أخرى، وكذلك في أطالية وألمانية ومشقُبية (يقصد روسيا التي عاصمتها موسكو). وكل لسان مختلف عن غيره.

وفي موضع آخر يتحدث عن رأس الرجاء الصالح، وأن القارة الإفريقية يصغر عرضها إلى أن يصبح مثل

ركن تلتف السفينة حوله. فيقول (ص ٩٦): ويمتد هذا الربع الأفريقي إلى طرف رأس الرجاء الذي هو سبع وثلاثون درجة إلى الجنوب من خط الاستواء. ويضيق للأرض من الجانبين، إلى أن يكون كركن، والبحر المحيط دائر به.

وفي أثناء إقامته في هولندا لاحظ طول النهار الذي يمتد سبع عشرة ساعة، والشفق يمتد إلى منتصف الليل. وبعد اختفائه بساعة ونصف الساعة يطلع الفجر. والتقى في تلك البلاد بستة رجال جاؤوا من شمال الكرة الأرضية، حيث ستة أشهر لا تغرب الشمس عنهم في الصيف، وستة أشهر يكون الليل متصلا في الشتاء. (ص ١١٠).

الدراسات العربية في فرنسا وهولندا

التقى الحجري في المغرب وفي فرنسا وهولندا مستشرقين، نجد أسماء بعضهم في الكتاب الذي بين أيدينا. وآخرين لم يسمهم في الكتاب، ولكننا نعرفهم من خلال رسائله المذكورة من قبل. ففي حديثه عن باريس يقول (ص٥٠): والتقيت في تلك المدينة رجلاً من علمائهم كان يقرأ بالعربية، وبعض النصارى يقرؤون عليه، كان يسمى بأبرت أبير Hubert، وعرض عليه أبير أن يساعده في مهمته التي جاء من أجلها إلى فرنسا، مقابل أن يشرح له الحجري كتبًا بالعربية كانت لدى المستشرق. ومنها مصحف شريف، وقانون ابن سينا في الطب، وكتاب إقليدس في الهندسة، وغير ذلك من كتب النحو والمناظرات. وكان الاثنان يبتدئان كل جلسة بالعلم، ولكنهما سرعان ما يتحولان إلى الجدال والمناظرة في الديانات.

وفي هولندا يتحدث عن المستشرق إربنيُس Erpenius دون أن يذكره بالاسم، قائلا (ص١٠٦): ولما دخلنا مدينة ليدا (ليدن) رأينا فيها مدارس لقراءة العلوم. ووجدت فيها رجلاً كان يقرأ بالعربية، ويقرئ بها غيره، ويأخذ راتبًا على ذلك. وكنت عرفته بفرنجة. وحملني إلى داره، وكان يتكلم معي بالعربية، يعرب الأسماء ويصرف الأفعال. وكان له كتب كثيرة بالعربية، ومن جملتها القرآن العزيز. وفي المدينة نفسها التقى الحجري رجلاً حكيمًا، مشهورا في الطب والعلوم، وناظره في أمور تتعلق بالمعجزات عند الأنبياء والخوارق عند الدجالين. والتقى كذلك عالمًا أحضر له كتابا في التصوف باللغة العربية، وكان الكتاب من جزر الملايو كما مرّ بنا.

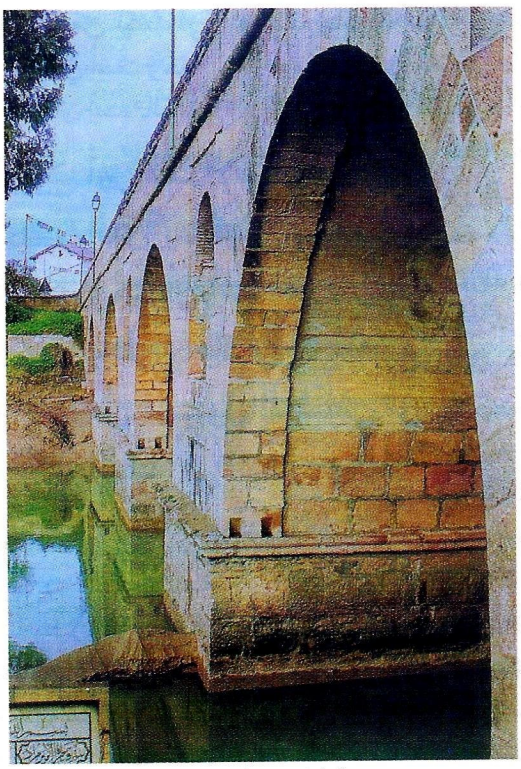
قنطرة مجاز الباب بتونس

صلاته بالعلماء العرب

مرّ بنا أن الكتاب تم تأليفه بطلب من الفقيه علي بن محمد الأجهوري المالكي بمصر. حيث كتب المؤلف كتابه المطول «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»، ثم اختصره بالكتاب الذي بين أيدينا. والأجهوري (ت ١٠٦٦هـ) عالم بالفقه والحديث من ذوي المؤلفات الكثيرة التي بقي عدد منها مخطوطًا إلى يومنا.

ومن أصدقائه في مراكش الفقيه أحمد بابا السوداني (أي من السودان الغربي، أو غرب إفريقية حاليًا) التنبكتي (ت ١٠٣٦هـ). وهو مؤرخ فقيه محدث، وأيضًا من المؤلفين الذين تركوا عددًا من المؤلفات. وكان الحجري في وداعه عندما خرج من مراكش إلى بلدته تنبكتو الواقعة في مالي حاليًا. وقد راسله الحجري بعد أن سافر إلى بلاده، فأرسل إليه رسالة يذكر له فيها رحلته إلى فرنسا وهولندا (ص١٣٦).

ومن أصدقائه بالمغرب القاضي المفتي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الرجراجي (ت ١٠٢٢هـ) الذي اشتهر بعلمه في مراكش وفاس. ومنهم الفقيه المقرئ محمد بن يوسف الترغي (ت ١٠٠٩هـ) الذي كانت تشد

إليه الرحال لأخذ القراءة المجودة عنه. ومنهم الفقيه القاضي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني (ت ١٠٦٢هـ) الذي جمع الانشغال بمنصب قاضي الجماعة إلى التدريس والإفتاء بفتاوى جديدة ذات اجتهادات فريدة. وقد جمعت نوازله (أي فتاواه بالاصطلاح المغربي) في مجموع بقيت منه عدة نسخ مخطوطة، (ص ١٣٧).

وتلمذ في التنجيم وخط الرمل والجداول العددية والحرفية للفقيه الفلكي أحمد بن قاسم المعيوب الفاسي الأندلسي نسباً (ت ١٠٢٢هـ). وكانت له من الكتب في تلك الفنون شيء كثير، لأن السلطان مولاي أحمد رحمه الله (يقصد المنصور الذهبي) ظهر أنه كان يمده بالكتب من خزانته التي قالوا: إن نهاية كتبها اثنان وثلاثون ألف كتاب (ص ١٠٣).

وفي تونس كان من أقرب أصدقائه الموريسكي الإمام محمد بن عبد الرفيع (ت: ١٠٥٢هـ) السابق ذكره (ص ٣١).

الكتب الرصاصية

في عام ١٥٩٥م بدأ اكتشاف ألواح من الرصاص في كهوف جبال الباريزو Val-paraiso الذي سمي فيما بعد «الجبل المقدس» ساكرو مونتي Sacro Monte وهو جبل قريب من تلة الحمراء. وكانت كتب مبهمة مكونة من ألواح رصاصية منقوشة بحروف عربية، تحتوي على كتابات دينية تحاول التقريب بين المسيحية والإسلام. وسرعان ما شكك القساوسة في كونها أصلية. ولكن الجدل حول أصالتها استمر حتى عام ١٦٨٢م حين أعلن البابا أنها مزيفة. نذكر من ضمن الجهود التي بذلت لدراستها أن المستشرق إربنيوس صديق الحجري دعي في عام ١٦٢٣م للسفر إلى إشبيلية لقراءتها، ولكنه لم يلبّ الدعوة.

وقد أخذت هذه الكتب الرصاصية إلى الفاتيكان، وظلت هناك إلى الشهر السادس من هذا العام (٢٠٠٠م) حين أعيدت إلى غرناطة وعرضت على الجمهور، بعد أربعمئة عام قضتها في الفاتيكان. علماً بأن محتواها درسه باحثون إسبان وغيرهم قبل عودتها إلى مكانها الأصلي.

في كتاب الحجري نجد النص العربي المعاصر الوحيد حول هذه الكتب الرصاصية، حيث يذكر المؤلف كيف تم العثور عليها، ثم يقول(ص٢٤): وأما الكتب التي وجدت في الغار في خندق الجنة فكانت اثنين وعشرين كتاباً، وهذا العدد هو الموجود حتى اليوم. والورق كما قلنا من الأسرب «أي الرصاص». ونادى القسيس الكبير الصياغ والمذوبين لعلهم يصنعون مثلها، فلم يقدروا على ذلك بوجه ولا بحال ولا تدبير. وعلموا بذلك أن الرصاص مزج معه معدن آخر، ولم يعرفوه. ثم يذكر ما عرفه من محتويات الكتب، نقلا عن مترجم موريسكي معتمد عند الإسبان، هو «الفقيه الأكيحل المترجم الأندلسي»، وأيضا نقلا عن اثنين آخرين، أحدهما قائد حربي بمدينة مراكش من الموريسكيين كذلك، اسمه فارس بن العلج، وكان من أهل الورع والدين. وقد شارك هذا القائد في ترجمة تلك الكتب حين كان أسيراً في غرناطة. والموريسكي الآخر -واسمه يوسف فلب- كان يعمل مترجماً لدى الإسبان ثم هاجر إلى تونس وقابله مؤلفنا بعد استقراره بتونس. فنجد في كتاب الحجري اقتباسات طويلة عن تلك الكتب الرصاصية (ص ٣١- ٣٤، و١٣٨- ١٥٠).

أمر ملك الإسبان بإخراج الموريسكيين بعد أن وجد أن أعدادهم تتزايد باطراد، وكان قد منعهم من دخول الجيش أو العمل في البحر أو حتى السفر فيه

العلاقات بين الموريسكيين والإسبان

في عهد المؤلف لم يكن يسمح باستخدام اللغة العربية، بل كان يعاقب بالقتل حرقاً كل من يمارس شعائر الإسلام، ومنها استخدام اللغة العربية. ولم يكن هناك مترجمون من العربية وإليها من غير الإسبان الأصليين إلا شيوخ كبار أدركوا الدولة العربية بغرناطة قبل منع استخدام لغتهم. ومن هؤلاء الشيخ الأكيحل السابق ذكره، والشيخ الصالح الجبّس. وكان حفيد الجبس - واسمه محمد بن أبي العاصي- يعمل مترجماً للعربية بسبب تقديرهم لجده ,وقد رآه مؤلفنا يفسّر للقساوسة كتاب الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

ثم عمل الحجري نفسه مترجماً بعد أن اكتشف القساوسة معرفته بالعربية؟ وقد سأله هؤلاء أين تعلم

العربية فقال بأنه نشأ في بيئة عربية ببلدة الحجر الأحمر، وتعلم الإسبانية في المدرسة، وأنه التقى في مدريد بطبيب من بلنسية علّمه الكتابة بالعربية. وكان يكذب في حديثه عن الطبيب البلنسي، لأنه كان يعلم أن أهل بلنسية كانوا من نصارى الإسبان، ولكن جامعتهم مسموح فيها تعليم العربية لغير الموريسكيين (ص ٢٤-٢٦).

وكلفه الرهبان بترجمة رقّ عثر عليه عند هدم منارة الجامع الكبير في غرناطة، فصعبت عليه بعض الكلمات، فاحتاج إلى معجم عربي، فناوله الرهبان معجم الصحاح للجوهري في مجلدين (ص ٢٦). وكان في يده يوماً كتاب في الجغرافيا بالعربية يطالع فيه. فجاءه وهو في تلك الحالة بعض المسافرين من بلدته (إشبيلية) وأخبره أن بعض أبناء بلدته نازلون في أحد الفنادق، فمشى إليهم والكتاب العربي بيده. يقول (ص ٢٩): وبعد السلام والكلام فتحت الكتاب، فلما رأوه مكتوباً بالعربية دخلهم الخوف العظيم من النصارى. وقلت لهم: لا تخافوا، لأن النصارى يكرموني ويعظموني على القراءة بالعربية. وكان أهل بلدي جميعاً يظنون أن الحراقين من النصارى الذين كانوا يحاكمون كل من عليه شيء من الإسلام أو يقرأ كتب المسلمين. ومن أجل ذلك الخوف العظيم كان أهل الأندلس يخاف بعضهم من بعض إلى آخر ما قاله حول الرعب الذي كان يعيش فيه الموريسكيون (ص ٢٩).

وظلت الحالة كهذه، يعيشون في رعب وذل ومهانة، إلى أن لا حظ الإسبان أن الموريسكيين يزداد نسلهم، بحيث يمكن أن يصبحوا أكثرية في سنوات قليلة إذا لم يتخذ إجراء حاسم وسريع. فالموريسكيون كانوا ممنوعين من دخول الجيش أو العمل في البحر أو حتى السفر فيه، وليس فيهم رهبان منقطعون عن الزواج. فهذه الأسباب التي ساقها الحجري (ص ١٠٩) جعلت ملك الإسبان يجري إحصائية عن تعداد الموريسكيين، وذلك قبل خروج الحجري من بلاده. ثم بعد ذلك بسبع عشرة سنة أجريت إحصائية أخرى. فلما وجد العدد يزداد أمر الملك بإخراجهم جميعاً. فتم النفي الكبير بين عامي ١٦٠٩ و١٦١٠م. وقد أورد الحجري تعريباً للأمر الملكي الصادر بشأن الطرد، وهو موجه من الملك إلى حاكم بلنسية (ص ١١١).

وفي ذلك الخطاب الملكي نجد اعترافاً صريحاً من الملك بأن الموريسكيين (والمدجنين من قبلهم) طوال العقود والقرون التي تلت احتلال بلادهم لم يتركوا الدين الإسلامي يوماً. كانوا ينصّرون قسراً، فيظهرون النصرانية ويمارسون شعائرهم الإسلامية سراً. فهذه شهادة من العدو تعدّ وسام فخر لهم. وشهادة أخرى تدل على تفوقهم في الصناعات والحضارة، فقد ورد في الخطاب الملكي نفسه: ولما يصلح بالبلاد في معاصر السكر والروز (أي الرز) وسقي البلاد (أي أنظمة الري وتصريف القنوات) ليعلموا السكان الجدود (أي الجدد) أمرنا بقعود ستة من الأندلس بأولادهم الذين لم يتزوجوا، في كل بلد يكون من مئة دار. ومع هذا تعرضت بلاد الإسبان لخراب اقتصادي بعد عملية الطرد الكبير، بسبب ما أصاب الأراضي الزراعية من بوار، وما أصاب المصانع من تعطل.

الكتاب يوضح اطلاع المؤلف العميق على الديانة المسيحية، ومعرفته بأصول الدين الإسلامي، وفيه مناظرات للمؤلف مع المسيحيين واليهود

ونجد عند الحجري اعترافاً بفضل السلطان العثماني على الموريسكيين. فمعلوم أن السلطان العثماني أحمد الأول طلب من ملك فرنسا أن يمكّن الموريسكيين الذين نفوا إلى فرنسا من العبور إلى ديار الإسلام، سواء القسطنطينية أو تونس. يقول الحجري في هذا الخصوص (ص ٤٩ و٥٠): «ولما صحّ عند سلطان إسطنبول بخروج الأندلس (أي الأندلسيين) الذين يسمونهم ببلاد الترك بمدجنين كتب كتابه السني إلى سلطان فرنجة بالوصية عليهم. ونفع ذلك الكتاب الأندلس نفعاً عظيماً، تقبّل الله منه وجعله في أعلى عليين ببركة سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين». وقد طلب الحجري من بعض الفرنسيين ترجمة رسالة ملك فرنسا التي فيها توصية به وبموضوع سفره، فإذا فيها العبارة التالية الموجهة إلى قضاة فرنسا: «نأمركم أن تقفوا مع حامل هذا (أي حامل هذا الخطاب) الذي يتكلم على الأندلس، لأن

السيد الكبير (أي السلطان العثماني) كتب لنا في شأنهم». فيقول الحجري معلقًا على هذه العبارة: وهذا الاسم لا يسمون به أحدًا من ملوك الدنيا، وذلك ببركة الإسلام، إذ هو أعظم سلاطينها (ص ٥٠).

ثقافة المؤلف العلمية

الكتاب يظهر لنا بوضوح اطلاع المؤلف العميق على الديانة المسيحية، مع معرفته بأصول الدين الإسلامي. فالكتاب ألّف كما ذكرنا من أجل بيان مناظرات المؤلف مع المسيحيين، مع ذكر مناظرات جرت مع يهود. ومن أجل مناظرة الأخيرين لازم قراءة التوراة بالإسبانية (ص ٨٧ - ١٠٣).

ونجد في الكتاب اهتمامًا له بقراءة كتب الطب، فمن ذلك قوله (ص ٦٤) قال بقراط وجالينوس وابن سينا وجميع الأطباء متفقون معهم أن لحفظ الصحة ينبغي أن يأكل الإنسان في نصف النهار أكثر مما يأكل في الليل».

وذكر من جملة العلوم التي تعلمها التنجيم الذي يقول عنه (ص ١٠٣) «علم الأحكام»، أي علم أحكام النجوم. قرأ هذا العلم على الفقيه أحمد المعيوب الفاسي الأندلسي نسبا كما سبق ذكره.

والتقى في مصر مع أحد رهبان الأقباط الذين كانت لديه مكتبة فيها معجم عربي إسباني. وذلك من أجل الاطلاع على كتاب في المواقيت، لمعرفة يوم الوقفة بعرفات. وكان الحجري يوافق الفقهاء القائلين بأن تحديد يوم عرفة لا يكون إلا برؤية الهلال. إلا أنه من باب الاستئناس يريد الاطلاع على الموعد حسب علم الميقات، إذ «لا يضر النظر في ذلك» (ص ١١٨). وقد ترجم كما ذكرنا «الرسالة الزكوطية» في الفلك والتنجيم بأمر من السلطان زيدان بمراكش.

وقد مرت بنا في الأسطر السابقة معلوماته المستفيضة في الجغرافيا حسب آخر ما وصلت إليه أخبار الاكتشافات في عصره، واطلاعه على ما لدى المستشرقين من علوم وكتب عربية. وقد بيّن في رسالته الموجهة إلى مورسكيي إستنبول أن بأوربا نشاطًا ملحوظًا في دراسة الكتب العربية وطباعتها في ذلك العهد المبكر. ورأينا من شيوخه وأصدقائه عددًا من علماء زمانهم في العلوم الشرعية والطبيعية. ووجدنا في الكتاب المعلومات التي لا غنى عنها عن أحوال الموريسكيين في تلك الفترة، وغير ذلك من المعلومات التي جعلت الكتاب موضع حفاوة وترحيب منذ نشره عام ١٩٨٧م، وذلك عند جميع المهتمين بتاريخ كل من الموريسكيين والدراسات الاستشراقية والمغرب العربي.

المراجع

- أرسلان، شكيب، تعليقات وهوامش على تعريب كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٩٧٣م.
- الإفريقي، ليون (وهو الحسن الوزان): «وصف إفريقية»، تعريب عبد الرحمن حميدة ومراجعة علي عبد الواحد، نشر جامعة الإمام، الرياض، ١٩٧٩م. وكذلك الطبعة الأخرى، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠م.
- التركي، عبد المجيد، «قضايا ثقافية من تاريخ المغرب العربي»، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م.
- الحايك، سيمون، «تأثير الزراعة العربية في عصر الانبعاث»، أبحاث المؤتمر السنوي الثاني عشر لتاريخ العلوم عند العرب سورية ١٩٨٨م، نشر معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٩٦، ص ٥٣ - ٧٦.
- الحايك، سيمون، «تراثنا المفضال»، المطبعة البولسية، جونية، ١٩٩٣م.
- حجي، محمد، «جولات تاريخية»، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م.
- حجي، محمد، «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين»، نشر دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٨م.
- الحمروني، أحمد: «الموريسكيون الأندلسيون في تونس، دراسة وببليوغرافيا»، نشر ميدياكوم، تونس، ١٩٩٨م.
- رزوق، محمد: «الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ - ١٧»، نشر دار إفريقية الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.
- رزوق، محمد، «أضواء على موقف المغرب تجاه الأندلسيين في العهد السعدي الأول»، مجلة «الأكاديمية»، الرباط، العدد ١٥، ١٩٩٨، ص ٧٩ - ٩٠.
- زبيس، سليمان مصطفى، «بحوث عن الأندلسيين في تونس»، نشر المعهد القومي للآثار والفنون، تونس، ١٩٨٣م.
- الزركلي، خير الدين، «الأعلام»، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٠م.
- زكار، سهيل، «المدفعية عند العرب»، نشر دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م.
- عنان، محمد عبد الله، «من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي»، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد ١٦، ١٩٧١م، ص ١١ - ٢٠.
- فضل، صلاح، «ملحمة المغازي الموريسكية»، نشر مؤسسة مختار، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
- اللوة، أمينة، «صور من تطوان الغرناطية»، مجلة «الأكاديمية»، الرباط، العدد ١٥، ١٩٩٨م، ص ١٩٩، ٢٤٠.
- مارمول كربخال، «إفريقية»، تعريب محمد حجي وآخرين، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ومكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٤م.
- هورتز وبنشن، «تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيين» تعريب عبد العال صالح طه، مراجعة محمد محيي الأصفر، نشر دار الإشراق، قطر، ١٩٨٨م.
- الوزير الغساني، محمد بن إبراهيم، «حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار»، تحقيق محمد العربي الخطابي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.
- Gafsi et Zbiss, Monuments Andalous de Tunisie, Agence Nationale du Patrimoine, Tunisie,1993.
- Wiegers, G.A., A Learned Muslim Acquaintance of Erpenius and Golius, Ahmed b. Kasim and Arabic Studies in the Netherlands, Documentatiebureu Islam-Christendom, Leiden, 1988 .